

**أعمال الرباط والمناصرة
في التاريخ العربي الإسلامي**

الدكتور علي أحمد

جامعة دمشق — قسم التاريخ

أعمال الرباط والمناغرة في التاريخ العربي الإسلامي

نقول بادئ ذي بدء، أن أعمال الرباط والمناغرة في تاريخ العرب النصالي، كانت من أجل وأنبل الأعمال، ذلك لأنها تهدف في المقام الأول الذود بسخاء عن حمى الأوطان دون أن تتدخل أية سلطة فيها، وبخاصة أن المرابطين والمناغرين كانوا يقدمون على هذه الأعمال برغبة جامحة، يحدهم في ذلك محبة الجهاد في سبيل أن تبقى أوطانهم عزيزة كريمة، وراياتها خفاقة تعبر عن قيمة الحرية وروعها. وكان المرابطون والمناغرون يمارسون هذه الأعمال في رباطات وثغور معينة، كانت جميعها تقريباً في مواقع قريبة جداً من أماكن توضع العدو وعلى تماس مباشر معه. ومن حسن الحظ أن معظم الذين تطوعوا للرباط والمناغرة، كانوا يرغبون في الشهادة التي كانت في نظرهم عملاً عظيماً يفوق كل الأعمال الأخرى، التي تتسم بالخير والصلاح، لأن الشهادة التي في سبيل حماية الأوطان هي طريق معبدة بقوة، تنتهي في نهاية المطاف في الجنة، حيث الخلود والبقاء.

ولا ننسى أيضاً أن مجموعة من أعمال الرباط والمناغرة، نفذتها الجيوش العربية النظامية تحت اسم معروف في تاريخ العرب في العصور الوسطى بالصوائف والشواتي، وإن كانت الصوائف هي الأكثر في هذا الميدان، ذلك لأن الأراضي أو المناطق التي نفذت فيها هذه الصوائف هي من المناطق الشديدة البرودة والتي تكثر فيها الأمطار والثلوج والجليد، الأمر الذي كان العرب يبتعدون عنه، لذلك كانوا يفضلون المناطق المعتدلة وكذلك أجواء الصيف لملاءمتها لطبيعتهم واستعدادهم الجسماني العام.

أدى الإقدام على تنفيذ هذه الأعمال الجلييلة، إلى بناء مزيد من أماكن الرباط والمناغرة في عدد من المناطق، التي كانت على تماس مباشر مع الجهات المعادية، وقد تطوّر

بعض هذه الأماكن مع مرور الزمن فأصبحت من المدن الهامة، التي ما زال بعضها قائماً حتى يومنا هذا، وكانت الدولة المسؤولة عن هذه المناطق هي التي تقوم بإنشاء هذه الأماكن كخطة هامة من أجل الحفاظ على أمنها واستقلالها العام. وحدث في بعض المناطق أن قام متطوعون مرابطون ببناء بعض الأربطة الهامة كما سنرى فيما يأتي :

كانت بلاد الشام كمنطقة جغرافية في العصور الوسطى هي السبابة في هذا المجال الحيوي كما هي اليوم، ذلك بحكم موقعها كمنطقة مصابغة لدولة معادية هي الدولة البيزنطية، التي كانت من القوة والمنعة والخبرة في شؤون الحرب والقتال على درجة كبيرة، مكنتها من الثبات بقوة في وجه الدولة العربية الإسلامية، التي حاولت منذ وقت مبكر إسقاط هذه الدولة على غرار ما حدث لكثير من الدول الكبرى، نتيجة نجاح الفتوحات العربية في العديد من مناطق العالم.

ظهرت بوادر البدء بخطة الرباط والمناغرة في العصر الراشدي، كخطة أو كعمل متمم لعمليات كان العرب المسلمون قد ركزوا على إنجازها. وقد بدأت هذه العملية في أول أمرها على السواحل الشامية، فقد أمر عثمان بن عفان واليه على الشام معاوية بن أبي سفيان، الذي كانت له اهتماماته الخاصة في العمليات العسكرية البحرية، وبالتللي لحماية السواحل الشامية من قبل البيزنطيين الذين امتلكوا في تلك الفترة قوة بحرية كبيرة^(١)، أمره بإنشاء العمارات الحربية وترميم الحصون الساحلية، فرمم حصون صيدا وكذلك حصون صور، وأنشأ جبلة على الساحل السوري وكانت حصناً للروم، جلوا عنه حينما فتح العرب المسلمون مدينة حمص في وسط سورية، وشحنها بالمراطة المتطوعين، وأنشأ لجبله حصناً خارجاً من الحصن البيزنطي القديم، كذلك مَصْرَ أنطرسوس (طرطوس اليوم على الساحل السوري) وكانت حصناً جلاً عنه أهله، فبنى معاوية فيها الأبنية وأقطع بها القطائع، وكذلك فعل بمرقية وبانياس إلى الشمال قليلاً من أنطرسوس.^(٢) وعملية إقطاع القطائع التي أقرها معاوية في

أنطرسوس، ربما كانت أول عملية من نوعها في الدول العربية الإسلامية بعد إقطاع الرسول لبعض أراضي الموات وغيرها، هذه العملية التي تطوّرت فيما بعد إلى نظام الإقطاع الذي كان على نوعين، إقطاع التملك وهو من أرض الموات أو من أرض الصوافي، ولصاحب هذا الإقطاع حق التصرف بإقطاعه، وإقطاع الاستغلال وهو مؤقت يشبه نظام المزارعة، الذي يقوم صاحبه بدفع الخراج عنه أو العشر ولا يجوز توريثه. وهناك نوع آخر من الإقطاع ظهر في العصر البويهي، وتوسع استخدامه في عصر السلاجقة والأيوبيين، وكذلك في عصر الحاجب محمد بن أبي عامر بالأندلس في القرن الرابع الهجري/العاشر الميلادي/ وهذا الإقطاع دعي بالإقطاع العسكري، وكان يعطي للضباط مقابل عدم إعطائهم رواتب شهرية ثابتة^(٣).

قام معاوية بن أبي سفيان بهذه الأعمال بعد أن ألحَّ على الخليفة عثمان بن عفان بالطلب في غزو قبرص وغزو القسطنطينية، ذلك لأن معاوية كان يحلم دوماً بالسيطرة على الممتلكات البيزنطية، هذا الحلم الكبير الذي ظل حياً في نفوس معظم الخلفاء الأمويين، وقضوا جميعاً ولم يتحقق. وكان معاوية بعد تحصين السواحل الشامية، أن بدأ في سلسلة من الحروب البرية أطلق عليها تسمية (حرب الثغور). والثغور كمنطقة جغرافية هي ما يعرف بشمال سورية وشمال العراق وجنوب شرق الأناضول، من أهم مناطقها مرعش وعينتاب وماردين والعواصم وعمورية وزبطرة والرها وغيرها، وهي كلها مناطق قريبة من القسطنطينية الهدف الرئيس للأمويين. وكانت الثغور فارغة من السكان باستثناء بعض المسيحيين، الذين أطلق عليهم تسمية (الجراجمة) الذين اختلف ولاؤهم بين حين وآخر، فكانوا يولون الروم، وذلك بحسب ما تقتضيه مصالحهم العامة^(٤).

كان لحرب الثغور هذه نظام معروف منذ سنة ٢٩ هـ/٦٥٠ م، عرف بنظام الصوائف والشواتي، الذي يقوم على تنفيذ غزوتين في كل عام إلى بلاد الروم، إحداهما في الصيف تسمى الصائفة والثانية منهما في الشتاء تسمى الشتاتية. ولقد كانت

الصوائف كما نوهنا أحب إلى قلوب العرب، لأنهم كانوا أكثر احتمالاً للحر من عدوهم وأقل صبراً على البرد.

ويبدو أن العرب لم يستقروا في شمال الشام وراء إنطاكية. ولما عجز العرب عن الاستقرار وراء ذلك، كما عجز الروم عن استرداد شيء من الأرض جنوب إنطاكية، تحولت حروب العرب والروم إلى غزوات كاسحة للتخريب والتدمير. ولقد اتفق العرب المسلمون أن اخترقوا بلاد الروم (آسية الصغرى) ووصلوا إلى القسطنطينية وحاصروها من غير أن يستطيعوا السيطرة عليها. وكذلك ساروا إليها بحراً فلم يقدروا أيضاً عليها.

فقد كان معاوية في مطلع خلافته مشغولاً في توطيد الملك لنفسه ولآله الأمويين وبالتمهيد لمبايعة ابنه يزيد بولاية العهد، فآثر مهادنة كونستانس الثاني البيزنطي لكي يتفرغ لمعالجة الموقف الداخلي. غير أن الحرب عادت بين الروم والعرب وشيكاً^(٥).

ومن الصوائف الكثيرة تلك الصائفة التي وصلت إلى حدود القسطنطينية بقيادة يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، الذي لم يكن بوده المشاركة فيها لأنه لم يكن يهوى مثل هذه الأعمال، لكن الذي حدث أن والده معاوية أجبره على قيادتها لإظهاره كقائد عسكري يصلح لحكم وقيادة الرعية بعد أبيه، ولإبعاد الصورة السيئة عن سيرته العامة. وقد شارك في هذه الصائفة كبار الصحابة وفي مقدمتهم صاحب رسول الله (ص) أبو أيوب الأنصاري، الذي سقط شهيداً في هذه الصائفة ودفن بالقرب من أسوار القسطنطينية^(٦).

وكان الهاجس لمعاوية كما ذكرنا هو حلمه بإسقاط القسطنطينية. لذلك نراه بتأثير ذلك يتابع إرسال الصائفة تلو الصائفة ولكن دون جدوى، حيث فشلت جميع الصوائف على أسوار المدينة. ومما ساعد البيزنطيين على حماية عاصمتهم من السيطرة العربية ما عرف بالنار الإغريقية التي اخترعها مهندس يقال أنه من اليونان، اسمه (كالينيكوس) كان قد هاجر إلى بيزنطة من سورية^(٧). وعلى الرغم من ذلك، فقد دخلت بيزنطة في

مفاوضات جادة مع حكومة دمشق الأموية لإنهاء حالة الحرب هذه، وأرسلت وفداً مفاوضاً تمكن من عقد صلح بين الطرفين مدته ٣٠ سنة^(٨).

في عصر يزيد بن معاوية وعصر مروان بن الحكم وابنه عبد الملك بن مروان، توقفت عملياً الصوائف الثغرية الشمالية، وهي المنطقة التي شكلت على الدوام خطراً أثار الخوف والقلق في نفوس خلفاء بني أمية. ولابد أن سبب ذلك التوقف، تجسّد بشكل خاص بالمشاكل الداخلية التي برزت بكثرة في فترة حكم الخلفاء سابقي الذكر، كعملية انتقال الحكم من السفينانيين إلى المروانيين، وما رافق ذلك من متاعب جمّة، وتلك الأحداث المخيفة في عصر عبد الملك بن مروان، كنزيرة عبد الله بن الزبير في الحجاز، والانتفاضة المستمرة بالعراق، وتمرد عمرو بن سعيد الأشدق بدمشق، والضغط البيزنطي الذي ازداد بفعل هذه الأحداث، مما جعل عبد الملك بن مروان يلجأ إلى تجديد تلك المعاهدة التي كان معاوية بن أبي سفيان قد عقدها مع بيزنطة ولمدة ثلاثين عاماً، وأضاف عليها البيزنطيون بنداً جديداً يقضي بأن يلتزم عبد الملك بن مروان بدفع جزية سنوية كبيرة، كانت أكبر بكثير من تلك التي كان يدفعها معاوية، كذلك أجبره البيزنطيون على إعطائهم نصف ما كان يأتيه من جباية أرمينية وقبرص^(٩). لكن بعد أن تغلب على مشاكله الداخلية، رفض الالتزام بينود هذه المعاهدة، وحاول إرسال بعض الصوائف بقيادة مسلمة بن عبد الملك، فوصلت إلى عمورية وقونية ودور ليوم (أسكي شهر) لكنها لم تكن ذات تأثير كبير^(١٠).

وفي عهد الوليد بن عبد الملك^(١١)، استمر إرسال الصوائف إلى منطقة الثغور الشمالية التي كان يقودها مسلمة بن عبد الملك الذي عرف بنبوغه في فنون القتال ومعرفته لهذه المنطقة الثغرية، فبدأ بصانعة إلى حصن طوانة، الذي كان يعد من أهم الحصون على طريق الجيوش المتقدمة باتجاه العاصمة البيزنطية، وتمكن مسلمة من السيطرة على هذا الحصن سنة ٨٨ هـ/ ٧٠٧ م^(١٢). ووصل المتأغرون في بعض الصوائف إلى كيليكية ثم إلى كيرزوبوليس.

حينما توفي الوليد بن عبد الملك خلفه أخوه سليمان بن عبد الملك، الذي أراد أن يكون له شرف تحقيق ما لم يحققه السابقون من خلفاء بني أمية في المجال العسكري، على الرغم من أن معظم المؤرخين يتهمون سليمان بن عبد الملك باللهو والانكباب على الملذات الخاصة. شجعه على ذلك أن بيزنطة كانت تحكم من قبل إمبراطور ضعيف هو ثيودوثيوس الثالث آخر ملوك الأسرة الهرقلية البيزنطية. وقد انتشر المठाغرون العرب طوال سنة ٩٨ هـ/٧١٧ م في المنطقة الممتدة من مرج دابق شمال حلب إلى أسوار القسطنطينية، وكان يقود هذه القوات المठाغرة الخليفة سليمان بن عبد الملك نفسه وربما هي أول مرة يقوم خليفة أموي بمثل هذا العمل القيادي المباشر، وكان يوجه العمليات الحربية من معسكره في دابق. وترافقت المठाغرة البرية هذه المرة مع مठाغرة بحرية مماثلة كان يقودها عمر بن هبيرة، في حين كان على قيادة المठाغرة البرية مسلمة بن عبد الملك^(١٣).

أبدى المठाغرون هذه المرة ضرورياً نادرة في التضحية والشهادة والإقدام، فقد اشتهر من بين المठाغرين رجل يدعى عبد الله البطال، الذي كان من جملة مرافقي مسلمة بن عبد الملك وحراسه، وقد أبلى في حصار العاصمة البيزنطية بلاء حسناً أعطاه شهرة واسعة الانتشار، تجسدت في قصص بطولية رائعة تشبه الأساطير، وعده الأتراك بطلاً قومياً وسموه (السيد غازي). وقد أنشئ على قبره بالقرب من أسكي شهر تكية ومسجد لأبناء الطريقة البكتاشية، وقد استشهد البطال في عملية نضالية ضد البيزنطيين سنة ١٢١ هـ/٧٤٠ م، أي في عصر الخليفة هشام بن عبد الملك، الذي استمرت العمليات الثغرية في زمانه. ويذكر أن البيزنطيين طبعوا صورة البطال على بعض كنائسهم لتذكير الناس بماله من بأس وشجاعة يجب أن تحتذى^(١٤).

توفي سليمان بن عبد الملك على حين غرة في سنة ٩٩ هـ/٧١٨ م وخلفه عمر بن عبد العزيز، الذي أوقف جميع العمليات الحربية من صوائف وغيرها، لأنه كان مقتنعاً أن معظم العمليات الحربية لم تكن في سبيل الإسلام، بل كانت في سبيل الحصول

على المكاسب والمغانم المادية. وكان من نتيجة توقف هذه العمليات أن قام البيزنطيون بهجوم كبير على مدينة اللاذقية سنة ١٠٠ هـ/٧١٩ م^(١٥).

لكن الذي حصل أن أعمال المठाغة عادت من جديد في عصر هشام بن عبد الملك، الذي يعد من مشاهير خلفاء بني أمية. ففي عصره كان المठाغرون العرب إذا سيطروا على منطقة ثغرية معينة في فصل الصيف تركوها حين حلول الشتاء. وهذا ما ساعد البيزنطيين في بعض الأحيان من تحقيق بعض الانتصارات، كما حصل في سنة ١٢٢ هـ/٧٤٠ م، حينما قضوا على مجموعة مठाغة من الجيش الأموي عند موقع أكروثيون قرب عمورية، و هو الموقع الذي سقط فيه البطل العربي عبد الله البطال شهيداً. وكان يقود أعمال الصوائف في هذه الفترة ولدا هشام بن عبد الملك، معاوية وسليمان اللذان اشتهرا بالشجاعة والبأس والإقدام^(١٦).

وحينما سقطت الدولة الأموية في المشرق، ورثت أعمال الرباط والمठाغة عنها الدولة العباسية وبخاصة في العصر الأول من عمر هذه الدولة^(١٧). لكن هذه الأعمال من حيث أهدافها الرئيسية، كانت تختلف عن تلك التي كانت عند الأمويين، ففي حين كان الأمويون يهدفون إلى إسقاط الإمبراطورية البيزنطية بالسيطرة على عاصمتها من أجل إحكام السيطرة على الحوض الشرقي للبحر المتوسط بكامله، بعد أن أحكموا سيطرتهم على مناطق هامة في حوضه الغربي، كان العباسيون يهدفون من أعمال الصوائف والمठाغة تأدية واجب ديني محض هو واجب الجهاد في سبيل الله، ذلك لأن الدولة العباسية قامت على أساس ديني، بينما قامت الدولة الأموية على أساس عربي، لم يكن للدين فيه كبير شأن أضف إلى ذلك، أن البيزنطيين في العصر العباسي بدعوا يشنون هجمات مضادة من أجل الدفاع انطلاقاً من القاعدة التي تقول أن أفضل وسيلة للدفاع، هي الهجوم وهي القاعدة التي طبقها الأمويون من خلال عملياتهم الثغرية سابقة الذكر.

بدأ البيزنطيون هذه العمليات منذ عصر الخليفة العباسي الأول أبو العباس السفاح،

الذي فوجئ بهجوم بيزنطي على منطقة ثغور الجزيرة الفراتية وبخاصة ثغر ملطية في سنة ١٣٣ هـ/٧٥١ م. وكان يقود هذا الهجوم الإمبراطور قسطنطين الخامس نفسه^(١٨). ولما جاء الخليفة المنصور استفاد من هذا الهجوم ، فأمر بتحسين ثغور الجزيرة الفراتية والشامية وزودها بأعداد كبيرة من المرابطين. وفي سنة ١٣٩ هـ/٧٥٧ م جعل هذه المنطقة ولاية إدارية مستقلة وولى عليها عبد الوهاب بن إبراهيم الإمام تحت اسم (والي الجزيرة) الذي عمل مباشرة على إعمار حصن المصيصة وإعادة إعمار ما خربه البيزنطيون في ملطية، ونقل إليها نحواً من أربعة آلاف من مناطق الجزيرة الأخرى، وزودهم بالسلاح وأقطعهم الأراضي، الأمر الذي شجع العديد من الناس على سكنى هذه المنطقة وبخاصة من سكان المناطق المجاورة. وفي عصر المنصور أيضاً بنيت مدينة ثغرية جديدة هي مدينة (أضنة)، وكان بناؤها في سنة ١٤٢ هـ/٧٦٠ م وثاغر فيها مجموعة من أهل الشام وخراسان. ثم تبع ذلك إعادة ترميم وتجديد حصن (مرعش) بعد عمليات تخريب أتت على معظم منشأته منذ فترة حكم مروان بن محمد آخر خلفاء بني أمية. ولما انتهت هذه العمليات الإنشائية وضع الخليفة المنصور أسلوباً محدداً لتقاليد المثاغرة والجهاد في هذه المناطق من خلال الصوائف والشواتي، التي اشتهر على صعيدها القائد المثاغر مالك بن عبد الختمي، الذي لقب (بمالك الصوائف) لحسن بلائه وجهاده الصادق ضد البيزنطيين^(١٩).

بعد وفاة المنصور استمرت أعمال المثاغرة والرباط على غرار ما كانت عليه في عصر ابنه المهدي بن المنصور، الذي قام بتحسين ثغر طرسوس وزوده بالمرابطين، وفي الوقت نفسه تصدى لهجمات بيزنطية قصدت ثغر مرعش والحدث وخربتهما، ثم أعاد بناءهما وأرسل بأربعة آلاف من المثاغرين إليهما، ثم قام بعد ذلك بتنفيذ صائفة ثغرية كان على رأس قيادتها، وكان معه ابنه الرشيد في ١٦٣ هـ/٧٨٠ م، ولما وصلت هذه الصائفة إلى مدينة حلب في شمال سورية اليوم، أمر المهدي ابنه الرشيد بمتابعة التنفيذ، فقام الرشيد باستعادة حصن (سمالو) وغيره.

وفي سنة ١٦٥ هـ/ ٧٨٢ م وصل الرشيد بتكليف من أبيه إلى أسوار القسطنطينية، وخافت الإمبراطورة إيرين من نجاح العرب المسلمين بالسيطرة على عاصمتها، فعقدت صلحاً مع الرشيد تكفلت بموجبه بدفع الجزية للعباسيين^(٢٠).

لم يتغير الحال في هذا الميدان حينما أصبح الرشيد خليفة بعد أبيه المهدي، فقد قام بتحسين الجزء الأكبر من منطقة الثغور، وكان في طليعة أعماله إنشاء منطقة (العواصم) وهي منطقة ثغرية مستحدثة، ضمت قسماً كبيراً من أرض قنسرين والجزيرة^(٢١). وجعلها مستقلة عن بقية الثغور وجعل عاصمتها (منبج) بالقرب من مدينة حلب في شمال سورية اليوم، وزودها بقوات عسكرية ماثرة خاصة بها^(٢٢).

ومن أعمال الرشيد الهامة الأخرى في منطقة الثغور، كان بناؤه (عين زربة) التي زودها وأسكنها بالمرابطين من المتطوعين لأعمال الرباط والمثاغرة^(٢٣). أضف إلى ذلك أنه نفذ العديد من الصوائف الهامة التي وصل بعضها إلى مدينة أنقرة وأفسوس، الأمر الذي أثر في الإمبراطورة البيزنطية إيرين، بأن أقدمت على عقد معاهدة صلح مع الحكومة العباسية، تدفع بموجبها الجزية للعباسيين، لكن هذه المعاهدة لم تدم طويلاً حيث قام البيزنطيون بنقضها، مما جعل العباسيين يعودون إلى تنفيذ صوائف ثغرية هامة وبعض الشواطئ، حينما جاء نقفور إلى الحكم في بيزنطة وبدأ يهدد مناطق الثغور ظناً منه أن العرب لا يتأغرون في فصل الشتاء^(٢٤).

وكان الخليفة المأمون يشبه إلى حد كبير والده الرشيد في مسألة الانتباه إلى أعمال الرباط والمثاغرة، وكثيراً ما قاد الطوائف بنفسه وكان يقيم فترة طويلة في كل صائفة، كما حدث في سنة ٢١٧ هـ/ ٨٣٣ م قبل وفاته بسنة واحدة، حينما ثاغر مدة ثلاثة شهور متوالية في عصر الإمبراطور البيزنطي تيوفيل، وكذلك فعل في السنة التالية وأمر ببناء عدد من الحصون وتوفي وهو مثاغر بطرسوس من أعمال الثغور^(٢٥).

أما في عصر الخلفاء العباسيين الذين حكموا بعد المأمون، وهم المعتصم والواثق والمتوكل، فلم تشهد أعمال الرباط والمثاغرة نشاطاً مميزاً يمكن التوقف في رحابه،

باستثناء تلك الحملة الثغرية التي قادها المعتصم إلى حصن عمورية الهامة بالنسبة للبيزنطيين، ويعود السبب في ذلك إلى أن جميع هؤلاء الخلفاء شغلوا بقضايا أهم كحركة بابك الحزمي وحركات الزط والشعوبية وقضية الاعتزال وما اتصل بهذه القضايا. واختفت أعمال الرباط والمثاغرة نهائياً في العصر العباسي الثاني، بسبب السيطرة الأجنبية على الخلافة العباسية التي أصبحت خلافة مقهورة من تسلط الأجانب، الذين كانوا لا يهتمون بمثل هذه الأعمال الوطنية الخالدة، بقدر ما كانوا يهتمون بمصالحهم الضيقة الخاصة.

يضاف إلى ذلك أن الدولة البيزنطية لجأت إلى إقامة نظام ثغري رباطي على غرار ما كان عند الأمويين والعباسيين، أطلقوا عليه تسمية (نظام الثغور أو الأجناد). وقد تطور هذا النظام وأعطى نتائج إيجابية في ميدان الدفاع المحلي، الذي اعتمد على سياسة تحويل الفلاحين البيزنطيين إلى جنود مدافعين عن أرضهم في أوقات الضرورة الحربية، وإلى مستثمرين للأراضي في أوقات السلم، لذلك بدأت التحركات العربية تصطدم بصعوبات ومقاومة عسكرية وشعبية في كل الثغور المتقدمة القريبة من البيزنطيين^(٢٦).

لم تكن أعمال الرباط والمثاغرة مقتصورة على الجزء الشرقي من وطننا العربي الكبير بل انتقلت هذه التقاليد الوطنية الرائعة إلى الجناح الغربي من ديار العرب في المغرب والأندلس وكان لهذه الأعمال الجليلة مبرراتها الواقعية، التي ارتبطت ارتباطاً وثيقاً بحالة الدفاع المشروع عن الأرض والحقوق. ففي المغرب الأدنى (تونس الحالية) التي كانت مقراً لدولة الأغالبة، التي قامت بالاتفاق مع العباسيين في عصر الخليفة الرشيد في نهاية القرن الثاني الهجري/الثامن الميلادي، في هذه المنطقة ظهرت حركة ناشطة للقوات العسكرية، استهدفت في المقام الأول تنفيذ حملات عسكرية بقصد فتح جزيرة صقلية وبعض المناطق المتفرقة في شرق وجنوب إيطاليا، من أجل تقويض المصالح البيزنطية في هذه المناطق.

تركزت الأعمال العسكرية العربية في هذا الميدان بتوجيه حملات باتجاه صقلية، كانت تشكل واحدة من أهم القواعد البيزنطية في حوض البحر المتوسط الغربي، في الوقت الذي كانت فيه بيزنطة تحاول إعادة سيطرتها على المغرب الكبير، انطلاقاً من المغرب الأدنى، حيث كانت بعض قواتها ما زالت هناك^(٢٧). اعتمدت الدولة الأغلبية على تراث نضالي كان قد نفذه ولاية في المغرب الأدنى من موسى بن نصير وعبيد الله بن الحباب قبل اندلاع ثورة الخوارج بالمغرب الكبير بقليل^(٢٨).

وتمثل هذا التراث النضالي بعدد من الحملات إلى صقلية نفذاً بشكل خاص عبيد الله بن الحباب. لكن على الرغم من أهميتها الكبيرة، فإنها بقيت في قائمة الغزوات والغارات، لأن أمر الاستقرار في صقلية وغيرها لم يكن في حسابان منفذي هذه الغزوات. وبالمقابل فإن البيزنطيين لم يقفوا مكتوفي الأيدي أمام الهجمات العربية، بل قاموا بإنشاء التحصينات في صقلية، وبادر أسطولهم البحري بمهاجمة الأسطول العربي على الشواطئ البيزنطية في صقلية، وكذلك الأمر على الشواطئ العربية، الأمر الذي أثار انتباه العرب إلى الشروع ببناء الأربطة على السواحل، و التي كانت تسمى أيضاً القصور. وقد اشتهر منها في عصر الولاية بالمغرب (قصر المنستير). وهذا الاسم مشتق من الكلمة الإسبانية (Almoncid). وقصر المنستير هذا من بناء هرثمة بن أعين القائد العباسي العسكري المشهور، بناه حينما كلفه الخليفة العباسي هارون الرشيد بضبط الأمور المضطربة في المغرب الأدنى آنذاك، لكنه فشل في ضبطها والسيطرة على مجرياتها، ونجح في تخليد ذكراه من خلال بنائه لهذا القصر في سنة ١٧٩ هـ/ ٧٩٥ م، الذي أصبح من أهم أماكن الرباط والمناغرة على السواحل المغربية، ذلك لأنه استقطب أعداداً كبيرة من المتطوعة للدفاع عن السواحل العربية في تونس ضد النشاطات الحربية البيزنطية، وبعدها النورمانية، طوال العصور الوسطى. ثم ازداد بعد ذلك بناء هذه القصور الرباطية باضطراد، لأن الجميع من حكام وغير حكام ساهموا في عمليات البناء هذه، نذكر على سبيل المثال عبد الرحيم

ابن عبد ربه، الذي شيد قصراً عرف باسم قصر عبد الرحيم، أنفق عليه ثمانية عشر ألف دينار، جمع ستة منها من معارفه ودفع هو الباقي^(٢٩).

كانت الغاية من هذه القصور بصورة خاصة، إنها عدت أمكنة يربط فيها من عنده رغبة الدفاع عن البلاد ضد الاعتداءات الخارجية. فكان قسم من المرابطين المتأخرين يبقى في هذه القصور مرابطاً بصورة مستمرة، وكان قسم آخر يبقى لفترة معينة ثم يغادر. لكن الشيء الثابت عن حياة المرابطين، أنهم كانوا يعيشون حياة زهد وتكشف لا نظير لها، فكانوا يكتفون بأبسط الأنواع من الطعام والمؤن، مثال ذلك أن أحد المرابطين قدم إلى قصر المنستير سابق الذكر في القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي للمرابطة لأمد بعيد، فسمع أصواتاً ولما سأل عن هذه الأصوات أجيب، بأن المرابطين يدقون التوابل لحدودهم، فامتنع من ذلك وعزم على مغادرة المنستير لأنه وجد في هذا العمل خروجاً تاماً على النظم والعادات القديمة في التكشف، التي عرفها وخبرها على أرض الواقع. فقد كان المرابطون في هذا المكان يقتصرون في طعامهم على شيء من دقيق الشعير وشيء من الزيت، فإذا حان وقت إفطارهم خلطوا ذلك الدقيق بقليل من الزيت وأكلوه^(٣٠).

يمكن القول أن هذه الأربطة على السواحل التونسية والإقدام على أعمال المرابطة فيها، شجع الأغلبة في عصر زيادة الله الأول الأغلب سنة ٢١٢ هـ/٨٢٨ م إلى إرسال حملة عسكرية لفتح جزيرة صقلية، هذه الحملة ستستمر في العمل من أجل فتح هذه الجزيرة وإزالة الوجود البيزنطي منها ومن الجزر المتوسطية المجاورة، كمالطة، التي كانت أهم محطة بيزنطية في غرب المتوسط، ذلك لأنها كانت صلة وصل هامة جداً بين أملاكها في الشرق وتلك التي في الغرب، ستستمر نحواً من خمسين عاماً مستمرة تراوحت بين هبوط وصعود، حتى أنجزت عملية إزالة الوجود البيزنطي في غرب البحر المتوسط في الثلث الأخير من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي^(٣١).

وفي منطقة مغربية بعيدة على المحيط الأطلسي، نشأ نوعٌ من الأربطة كان في بداية أمره من أجل ممارسة العبادة والزهد والتبتل، ثم تطور مع الأيام وبسرعة قياسية إلى قيام حركة سياسية، أسفرت عن قيام دولة عرفت في تاريخ المغرب بدولة المرابطين، التي سادت في كل المغرب العربي الكبير وكذلك في الأندلس منذ سنة ٤٨٥ هـ/ ١٠٩٢ م.

وهذه المنطقة الرباطية هي جزيرة (تيدرا) الواقعة على مسافة خمسمائة كم من مصب نهر السنغال، ويقال في (أرغوين) الواقعة إلى الشمال منها بين خليج لوفرييه ورأس تيميريس. وصاحب أول رباط في هذه المنطقة هو عبد الله بن ياسين صاحب الدعوة المرابطية^(٣٢)، الذي انتقل إلى هذا الموقع ومعه زعيم آخر من زعماء صنهاجة^(٣٣)، هو يحيى بن إبراهيم. وقد حصل ذلك بعد اختلافه مع زعامة صنهاجة التي كانت قد استدعته لنشر النظم والتعاليم الإسلامية في صفوفها، لكنه تشدد في مسألة تطبيق حدود الشريعة الإسلامية على عادة الفقهاء، إذا منحوا حيزاً من الحرية أو شيئاً من السلطة، فطردوه من صفوف صنهاجة واستغنوا عن خدماته، فلبأ إلى أعمال الرباط واختار لذلك الموقع سابق الذكر. في فترة قصيرة جداً تجمعت حوله في هذا الرباط قوة بشرية كبيرة، جعلته ينتقل من حياة الزهد والعبادة في رباطه إلى حياة السياسة والمغامرة، ونجح في ذلك إلى حد كبير حينما وضع أسس الدولة المرابطية في المغرب الكبير والأندلس^(٣٤).

وفي المغرب الأقصى (المملكة المغربية اليوم) بني رباط من أجل أعمال الجهاد والمناضلة الرباطية في المنطقة التي بنيت فيها مدينة الرباط المغربية الحالية، وهو من بناء عبد الله بن ياسين صاحب الرباط السابق، وقد بناه بعد أن ترك حياة الزهد وانتقل إلى حياة السياسة، التي بدأها في الحرب ضد قبيلة صنهاجة التي طردته من ربوعها بالأمس القريب. وكان سبب بناء هذا الرباط الجديد أن عبد الله بن ياسين، أحب إخضاع دويلة برغواطة، التي كانت متهمة بالخروج على الديانات التوحيدية. وقد

توضعت بشكل خاص في منطقة (تامسنا) بين نهري بورقراق وأم الربيع على شاطئ المحيط الأطلسي، وهي نفسها المنطقة التي أقام فيها عبد الله بن ياسين رباطه، وبالتالي هو مكان مدينة الرباط الحالية، وكان اسم هذا الرباط رباط الفتح. وفي هذه المنطقة قتل عبد الله بن ياسين في إحدى معاركه مع أتباع برغواطة في وادي كريفلة على مسافة ٣٠ كم إلى الجنوب الشرقي من مدينة الرباط الحالية سنة ٤٥١ هـ / ١٠٥٩ م^(٣٥).

أما في الأندلس ومنذ وقت مبكر من فترة حكم العرب فيها، فقد حددت مناطق معينة للمناعرة، كانت قريبة من مواقع المعارضة الإسبانية التي سميت حديثاً (حركة الاسترداد) والتي توضع قواتها الرئيسة في شمال أسبانية وشمالها الغربي، وتجسدت هذه القوات في عدد من الدويلات مثل دويلة قشتالة أعظم هذه الدويلات في وسط الشمال الإسباني ودويلة ليون إلى الشمال الغربي منها ودويلة البرانس في البيرينيه في جنوب فرنسا اليوم، ودويلة برشلونة في شمال شرق إسبانية. وكان أهم الثغور العربية القريبة من هذه المواقع المعارضة، الثغر الأدنى في الغرب وكان من أقرب الثغور إلى العاصمة قرطبة، لذلك سمي بالأدنى أي الأقرب إلى العاصمة، وكانت قاعدة أو مركز أو عاصمة هذا الثغر مدينة (ماردة) في البداية ثم انتقلت إلى مدينة (بطلوس) المجاورة، والثغر الأوسط وكانت قاعدته مدينة طليطلة العاصمة الإسبانية القديمة، وسمي هذا الثغر بالأوسط لأنه في منطقة متوسطة من الأندلس، والثغر الأعلى أي الأبعد وهو عكس الأدنى أي أبعد الثغور عن العاصمة قرطبة، وكانت قاعدته مدينة سرقسطة في شمال شرق إسبانية. وكانت مهمة هذه الثغور في المقام الأول إضافة إلى مهمتها كتجمع بشري واقتصادي وحيوي في الأندلس، أنها كانت مراكز توضع وحشد القوة العربية للرد على الاعتداءات الإسبانية والفرنجية، التي بقيت تتكرر بلا انقطاع حتى نجحت في نهاية الأمر من تحقيق هدفها الرئيس، وهو إجلاء العرب عن الأندلس نهائياً^(٣٦).

لم يكتف العرب في الأندلس بهذه الثغور كأماكن لتوضع قواتها الحربية، بل راحوا يبنون مناطق ومدن ثغرية أخرى لدعم وتعزيز هذه الثغور، وخصصوا للمدن والثغور الجديدة حكاماً وقادة، عرفوا في تاريخ العرب بالأندلس قادة أكفاء تمكنوا من تنفيذ مهامهم بنجاح وإخلاص لا نظير لهما. نذكر من هذه المواقع الثغرية الجديدة بالأندلس مدينة (مجريط) (مدريد حالياً)، التي بنيت في عصر الإمارة الأموية لتكون موقعاً ثغرياً متقدماً من مواقع المعارضة الإسبانية من أجل تدعيم ومساندة الثغور السابقة في أعمالها الدفاعية. كانت مدريد في بداية عهدها حصناً مثل بقية الحصون المجاورة لها، وسرعان ما اتسعت حتى أصبحت مدينة هامة كما يصفها معظم الجغرافيين العرب واسمها القديم كما ذكرنا (مجريط). وتتألف هذه الكلمة من مقطعين (مجرى) وهو لفظ عربي خالص أضيف إليه مقطع آخر من اللاتينية الدارجة هو (يط) الذي يدل على التكاثر. وبذلك يكون معنى الكلمة (المدينة التي تكثر فيها المجاري، أي القنوات الجوفية التي كانت تحمل الماء إلى سكان المدينة وبيوتها وحدائقها وزروعها وحماماتها) (٣٧).

بنيت هذه المدينة في عصر الأمير محمد الأموي في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري/ التاسع الميلادي. وكان من أمنع أجزائها القسبة التي تتوضع على ربوة مرتفعة تطل على السهل المنبسط، الذي يدعى الفحص الممتد بين أسوارها القريبة ونهر المانشانارس. وفي هذا الموقع كان يتوضع القسم الأكبر من المئاعرين المرابطين. ويقدر ما تشغله القسبة بنحو تسعة هكتارات (٣٨).

وكانت مدينة مدريد من أكثر الثغور في إسبانية نشاطاً وحيوية على الصعيد العسكري والرباط والمئاعرة، حتى تطورت باتجاهين آخرين الصناعة والتجارة، ودليل ذلك أن شوارعها كانت وما تزال تحمل أسماء الحرف المتعددة مثل الدباغين والطرابين والصباغين وغير ذلك. وكان من أهم ما تردد على مدريد سيد مجاهدي ثغور إسبانية

العربية في العصور الوسطى محمد بن أبي عامر، الذي نفذ أكثر من خمسين صائفة ثغرية في حياته (٣٩).

كما كانت من ناحية أخرى مركزاً هاماً، استقطبت العديد من المठाغرين الذين اهتموا في المقام الأول بأمر المठाغرة، ونذروا أنفسهم لها من أجل النضال ضد الأسباب المتربصين بالوجود العربي في شبه الجزيرة الايبيرية، نذكر من هؤلاء المठाغرين إبراهيم بن محمد المعروف بابن القزاة، الذي كان من كبار الفقهاء، فقد أثر حياة الجهاد فخرج إلى مدريد ومعه خمسة من تلامذته القرطبيين، وظلوا يقاتلون العدو حتى نهاية حياتهم (٤٠).

ومحمد بن حنين الأشجي الذي رابط بمدريد حتى توفي، ومنهم موسى بن قاسم الطليطلي الذي كان من كبار العلماء، وانتقل إلى مدريد وظل يجاهد ويرابط حتى استشهد في المنطقة السهلية التي تقع إلى الجنوب من مدريد (٤١).

وقد ذاعت شهرة مدريد كمكان للرباط والمठाغرة، فجاء إليها بعض المغاربة للقيام بأعمال الرباط والجهاد في سبيل الله، نذكر منهم على سبيل المثال جساس السجلماسي المعروف بالزاهد، الذي امتدت إقامته بمدريد طويلاً حتى توفي (٤٢). وحينما سقطت مدريد بيد المعارضة الإسبانية في أواخر القرن الخامس الهجري/الحادي عشر الميلادي، ظهرت عاصمة ثغرية أخرى إلى الشمال منها بمئة وخمسين كيلومتراً، هي مدينة سالم التي عرفت في القرون الوسطى بثغر سالم، وكان يعين لحكمها أكبر قادة الجيش العربي وأعرفهم بشؤون الحرب والقتال (٤٣).

كذلك ظهرت أربطة جديدة على الساحل الجنوبي الغربي للأندلس منذ النصف الأول من القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، بعد أن فوجئ العرب الأندلسيون بهجوم النورمانديين (٤٤) المباغت عليهم في هذا الوقت بالذات، وبخاصة على مدينة اشبيلية وما حولها، وكانت الخسائر جسيمة لأن الهجوم النورماندي وقع على هذه المناطق

على حين غرة، فتحقق للنورمان عنصر المفاجأة المهم في أية حرب أو هجوم، واحتلوا مدينة قانس واخترقوا الوادي الكبير (النهر الكبير) من مصبه حتى وصلوا إلى اشبيلية فاحتلوها سنة ٢٣٠ هـ/٨٤٤ م في عصر الأمير الأموي عبد الرحمن الأوسط^(٤٥).

على الرغم من أن العرب الأندلسيين تمكنوا من الأخذ بزمام المبادرة، بعد أن فوجئوا بوجود هذه القوى في أرضهم وبين ظهرانيهم، وقبضوا على عدد كبير من الأسرى وخيروهم بين الإسلام أو القتل، فقبلوا باعتناق الإسلام واهتموا منذ ذلك الحين بتربية المواشي وصناعة الألبان ومنتجات الحليب الأخرى، وهي الصناعة التي يشتهر بها في بلادهم الدانمارك حتى اليوم^(٤٦). على الرغم من ذلك فقد التفت العرب الأندلسيون إلى مسألة تقوية الأسطول الحربي البحري بزيادة عدد سفنه الحربية على مختلف أشكالها، وكذلك إلى إقامة المحارس والأربطة على الساحل الغربي المطل على المحيط الأطلسي، على غرار ما حدث إلى الشرق على الساحل التونسي وغيره من سواحل المغرب الكبير.

وقد تعود المرابطون في أربطتهم منذ ذلك الحين، أن يحرسوا في مراقب عالية ملحقة بالرباط تكشف سفن الأعداء من مسافة بعيدة، ويقم فيها المتطوعون لأعمال الرباط والحراسة العامة، الذين عرفوا في هذه المنطقة بـ (السمار).

وقد زودت هذه الأربطة بالمنائر التي عرفت باسم (الطوالع). فكان على المرابطين إذا شاهدوا عدواً مقبلاً في عرض البحر، أشعلوا النار في أعلى المنائر والطوالع إن حدث ذلك في الليل، أما إذا حدث في النهار فكانوا يعملون على إطلاق دخان كثيف. إضافة إلى ذلك فإنهم كانوا يبادرون إلى ضرب الطبول لتحذير وتنبية أهل المدن التي تجاورهم، إن غارة معادية ما ستقع قريباً، بما يشبه صافرات الإنذار في أيامنا هذه. وكثيراً ما استخدم المرابطون إشارات بواسطة النار أو الدخان، هدفوا من خلالها الإعلام عن حالة العدو المهاجم وعدده وجنسيته وما إلى ذلك من أمور^(٤٧).

أدت هذه الأعمال السريعة التي ترجمها عبد الرحمن الأوسط حقيقة إيجابية على الأرض، إلى تحصين السواحل الأندلسية وحمايتها، وقد ظهر ذلك واضحاً في عصر الأمراء الذين جاءوا بعده حتى نهاية القرن الثالث الهجري/التاسع الميلادي، حينما تمكن هؤلاء الأمراء من رد النورمانديين على أعقابهم يجرون خلفهم أنيال الهزيمة، بعد أن حاولوا الهجوم على السواحل الأندلسية مستغلين بعض حالات الضعف في الجبهة الأندلسية، وكان من نتيجة ذلك أن النورمانديين لم يستطيعوا من تمكين وجودهم في إسبانية، كما فعلوا في فرنسة وبريطانية على سبيل المثال.

وفي عصر الخلافة بالأندلس أيضاً، أعاد بعض الخلفاء إلى أذهان الناس سيرة ما كان يجري في العصر الأموي والعباسي بالمشرق العربي، من خلال ما نفذوه من صوائف ناجحة في مناطق تواجد المعارضة الإسبانية. اشتهر في هذا المجال النضالي الإيجابي الحاجب المثاغر محمد بن أبي عامر، الذي سيطر على أمور الخلافة خشية إثارة حفيظة الأمويين ومؤيديهم عليه. وكان يشعر دوماً أنه حاكم غير شرعي، مما جعله يلجأ إلى عدد من الأساليب المتفرقة، التي تقربه من قلوب الناس وتجعله حاكماً مرغوباً فيه ولو على المستوى الظاهري، من هذه الأساليب الناجحة تصميمه على تنفيذ الكثير من الصوائف الجهادية في الثغور البعيدة عن العاصمة، وتطور الأمر في هذا الميدان إلى أنه توغل في أرض المعارضة الإسبانية كثيراً. فقد بلغت صوائفه قرابة خمسين صائفة ، وصل في أحدها إلى (شنت ياقب) أي قلعة القديس يعقوب في شمال غرب الأندلس وهي أبعد منطقة وصلها العرب في كل تاريخ وجودهم بالأندلس.

وكان في كل صائفة يأتي إلى قرطبة أو إلى مستقرة بمدينة الزاهرة التي بناها إلى الشرق من قرطبة محملاً بالأسرى والأسيرات والغنائم، ومن كثرة ما كان يجلبه من أسيرات قل الطلب على النساء العربيات من الحرائر ، وقد أدى عمله في هذا المجال أيضاً إلى تحويل كلمة (الجلاب) عند أهل الأندلس من معنى (القيح) الذي كان يطلق

على الرجل، الذي يبيع الدواب والحيوانات أو على بائع الرقيق، إلى معنى لطيف جداً ظهر من خلال إطلاق الأندلسيين على محمد بن أبي عامر اسم (الجلاب)، أي كأنهم يقولون له القائد العظيم الذي غمرهم بالهدايا والسبايا نتيجة صوائفه الكثيرة. وحينما توفي قال الأندلسيون: لقد مات الجلاب الذي ساعد على عدم تمسك أهل الأندلس بمسألة طلب المهور الغالية، وذلك من كثرة ما كان يصطحب معه من بنات جميلات من مناطق المعارضة الإسبانية التي نفذ فيها صوائفه المذكورة، فقل الطلب في عصره على النساء العربيات (٤٩).

كان لحملات المنصور محمد بن أبي عامر الثغرية المتواصلة وصوائفه في المناطق الإسبانية، نتائج في غاية الأهمية وبخاصة في المجال العسكري. فقد أدت هذه الصوائف الثغرية المظفرة إلى تهديم العديد من المناطق الإسبانية، التي تميزت بقوتها وخطورتها، ولاسيما على ضفة نهر دويرة اليمنى. كما أدت من جهة أخرى في الميدان السياسي إلى سيادة سيطرة الخلافة الأموية على دويلات شمال إسبانية. وقد تمثل ذلك بتقديم حكام هذه الدويلات كل ألوان وأشكال الولاء والطاعة لخلافة قرطبة، وبخاصة أنهم التزموا بدفع جزية مجزية، وتنازلوا عن بعض الحصون ذات الموقع الهام في المناطق الثغرية الشمالية، وقبلوا في بعض الأحيان بوجود قوة عسكرية عربية في أراضيهم مثلت الخلافة الأموية بقرطبة (٥٠)، نذكر من ذلك على سبيل المثال القوة التي كان يقودها ابن أبي عمروس المشهور بالعريف، وكانت مهمة هذه القوة التعرف على التطورات العامة في مناطق الأسبان المعارضين، ونقل كل ما يمس المصلحة العربية العامة بأقصى ما يمكن من السرعة (٥١).

يبقى أن نشير بفخر واعتزاز إلى نوع من المثاغرة في غرناطة بجنوب شرق الأندلس، وهي تختلف عن كل أنواع الرباط والمثاغرة التي أتينا على ذكرها حتى الآن، في أن المثاغرين لم يكونوا من الغرناطيين، إنما كانوا من أهل المغرب الأقصى

من رعايا دولة بني مرين، التي ظهرت في المغرب الأقصى على أثر زوال دولة الموحدين في سنة ٦٦٨ هـ/ ١٢٧٠ م، وكانت من أقوى الدول التي ظهرت معها في وقت واحد، وهي الدولة الزيانية أو كما تسمى أحياناً دولة بني عبد الواد بالمغرب الأوسط (الجزائر اليوم)، والدولة الحفصية في المغرب الأدنى (تونس اليوم). وقد ساعدت القوة التي امتلكها المرينيون وهي قوة عسكرية في المقام الأول، إلى دعم الموقف الذي كان محفوظاً بالمخاطر في دولة غرناطة بالأندلس، فقد هب المرينيون بصدق واندفاع وقوة لإنقاذ وتدعيم الموقف الغرناطي أمام أطماع وتكالب الأسبان. وقد تجسد ذلك على أرض الواقع بمجموعة كبيرة من المرابطين والمناغرين المغاربة، سميت في بداية الأمر (الغزاة) وقد دخلت غرناطة في القرن الثامن الهجري/الرابع عشر الميلادي . وبعد مضي فترة وجيزة على وصول هذه المجموعة المناغرة، أطلق عليها تسمية جديدة بعد أن وضعت تحت قيادة واحدة هي (مشيخة الغزاة). وكان شيخ الغزاة يقوم بنفسه أو يشرف على توزيع هذه المجموعة من المناغرين في المناطق، التي كان من المتوقع أن ينطلق منها العدوان على غرناطة وما حولها. وكانت مرتبات هذه المجموعة تؤمن من الضرائب والمكوس، التي تجبى من المنطقة الموجودة فيها، هذا بالإضافة إلى حصتها من الغنائم الحربية. وقد تميز رجال هذه المجموعة بأنهم كانوا من الخيالة، الذين يجيدون بسرعة الحركة والتنقل في الوقت المناسب. وقد قدموا للحكومة الغرناطية خدمات جليلة في الميدان الدفاعي عن بلادها، تجلت في أنهم أبلوا بلاء حسناً في مقاومة الأسبان، وأدوا إلى إطالة صمود وبقاء غرناطة زمناً طويلاً. فقد ألقوا الرعب والخوف في نفوس الأسبان، وكانوا يحسبون لهم حساباً كبيراً، ودليل ذلك أن أحد حكام مملكة أراغون الأسبانية طلب من ملك غرناطة في اتفاقية وقعها معه، أن يزود بمجموعة كبيرة من جند مشيخة الغزاة المغاربة مقابل السفن التي سيقدمها له. ويقال أيضاً، اسم الفارس باللغة الإسبانية هو (خينيني) مشتق من كلمة زناته، وزناته كما هو معروف إحدى القبائل المغربية الكبيرة، التي اشتهرت في تاريخ

المغرب الكبير في العصور الوسطى بالتقل وعدم الاستقرار، وعناصر مشيخة الغزاة بالأندلس موضوع حديثنا كانوا برمتهم من هذه القبيلة. وفي نهاية وجودهم بالأندلس، خاف منهم حاكم غرناطة، فألغى منصب شيخ الغزاة وتولاه بنفسه (٥٢).

كانت مشيخة الغزاة في غرناطة وما حولها آخر قوة عربية، أهتمت بأعمال الرباط والمثاغرة في مشرق وطننا العربي الكبير ومغربه، أي القيام بأعمال حربية دفاعية معينة ضد عدو محدد. لكن المرابطين من نوع مغاير ظهوروا في المشرق العربي بشكل خاص، وتحددوا في فترة حكم المماليك بمصر والشام. وظهر نوع جديد من الأربطة، اختلفت في وظيفتها وهدفها عن الأربطة التي تحدثنا عنها. ففي حين كانت وظيفة المرابطين تتمحور حول عمليات الدفاع عن الأرض وحماية الحدود في الدرجة الأولى، كانت وظيفة المرابطين في أربطتهم بمصر والشام وظيفة تعبدية بحتة. ففي الرباطات يمارسون حياة خاصة من العبادة والزهد في الليل والنهار، ويمتنعون عن المشاركة نهائياً في عملية بناء مجتمعهم على كافة الأصعدة. ومن سوء الطالع في مصر والشام، نرى أن الدولة المملوكية بادرت بقوة إلى تشجيع هذا النوع من المربطة المعطلة، من أجل إظهار حرصها المزيف على المظاهر الدينية، كي تحافظ على استمراريتها في الحكم والسلطة قدر الإمكان. وبلغ ما بناه سلاطين دولة المماليك من أربطة وزوايا كما كانت تسمى أحياناً في مصر والشام، بلغ أكثر من مائة رباط في المدن الكبرى كالقاهرة والإسكندرية ودمشق وحلب وبيت المقدس. وعينت الدولة لهذه الأربطة أوقافاً كثيرة للصرف على المرابطين فيها، من طعام وكساء وتدفئة ومرافق عامة متفرقة.

أقدمت الدولة المملوكية على هذه الأعمال، على الرغم من أنها كانت تعرف أن بناء الأربطة والصرف عليها وعلى المقيمين بها، ما هو إلا عبئ إضافي ثقيل أضيف إلى الأعباء الكثيرة، التي فرضت على المجتمع في مصر والشام في هذه الفترة الصعبة

من تاريخها. فقد كانت المجموعات المرابطة تحتاج إلى مصاريف كبيرة جداً، هذه المصاريف تكفل فيها الفلاحون وأصحاب الأراضي من الملاك الصغار، وكذلك أصحاب المتاجر الصغيرة وأصحاب الحرف المتفرقة بصورة غير مباشرة، من خلال الضرائب والأتاوات والمصادرات التي فرضت على الشعب بمصر والشام في عصر المماليك بكثرة وبدون رحمة (٥٣).

وبالجملة فإن أعمال الرباط والمناعة، كانت من أجل الأعمال وأنبلها، ذلك لأنها هدفت في الدرجة الأولى الدفاع عن الحقوق والحدود والأرض، من أجل أن يبقى الاستقلال كاملاً والحرية موفورة في كل ربوع الوطن. وكان من أرقى الأعمال على الإطلاق، تلك الأعمال التي مارسها متطوعون فضلوا حياة الرباط والثغور، التي كانت على تماس مباشر مع العدو، كذلك الأربطة التي أقيمت على ساحل تونس عند ظهور النورمان في هذه المنطقة، في القرن الثالث الهجري / التاسع الميلادي.

كما أدت الأعمال الأخرى من صوائف و شواتي، إلى حماية البلاد من كثير من الهجمات المعادية، كانت ستحصل لولا أن قام العرب في تنفيذ هذه الصوائف، بمعنى أنها حققت مقولة أن أفضل وسيلة للدفاع هي الهجوم. وإن القوى التي نفذت هذه الأعمال، تشبه إلى حد كبير القوات العسكرية التي تتوضع في أية جهة من الجهات المتقدمة، أو التي تتوضع في مناطق استراتيجية من أجل الوقوف على تحركات العدو العامة، وهي ما نسميها بقوى الاستخبارات والاستطلاع، التي أصبح لها أهمية بالغة لما تجمعها من معلومات هامة وضرورية عن العدو، الأمر الذي يساعد على تحقيق عنصر المفاجأة الذي يؤدي عادة إلى النجاح.

وقد تشابهت أمكنة هذه الأعمال في شرق الوطن العربي و غربيه، باستثناء بعض الأمكنة في المغربين الأدنى والأقصى، حيث أطلق عليها كما مر معنا اسم (القصور). وربما أخذت هذا الاسم من قصور بنيت أثناء عملية فتح المغرب في القرن الأول

الهجري/السابع الميلادي، وهي القصور التي بناها حسان بن النعمان الغساني أحد الشخصيات الهامة، التي شغلت دوراً كبيراً في نجاح عملية فتح المغرب، على السواحل الشرقية الليبية حينما لجأ إلى هذه المنطقة على أثر فشله العسكري أمام قبيلة (جراوة) اليهودية بزعماء الكاهنة دهباً أودمياً، التي كانت تسيطر بقوة على كل منطقة الأوراس بجنوب شرق الجزائر، والتي سيطرت على كل تونس بعد هزيمة حسان بن النعمان الذي أجبر على إقامة قصوره في المنطقة سابقة الذكر، وبقي فيها مع قسوات قليلة حتى أمده عبد الملك بن مروان بقوة جديدة، مكنته من الانتقال من حياة الرباط في قصوره المذكورة إلى حياة الهجوم، الذي كان من نتيجته الأخذ بزمام لمبادرة بعد أن تمكن من هزيمة اليهود، في الأوراس^(٥٤).

كما نستنتج من ذلك أيضاً بعض الرباطات التي اعتاد الأمويون أن يقيموها بجانب المساجد، التي شيدت في البلاد حديثة الفتح^(٥٥)، ولكن لا نعرف على وجه الدقة واليقين الأسباب الحقيقية، التي كانت وراء إقامة هذه الرباطات. وما يمكن قوله في الصد، أن الأمويين أقدموا على بناء هذه الرباطات، من أجل أن تكون مكاناً ثابتاً لإقامة واستقرار المكلفين على توفير الخدمة وإقامة الصلاة في المساجد، وفي الوقت نفسه من أجل حماية هذه المساجد من هجمات كانت متوقعة في كل حين، وبخاصة أنها أقيمت في مناطق حديثة بالإسلام والمعارضون كثيرون فيها.

من هذه الاستثناءات أيضاً، ما حدث في الفترة المتأخرة من العصر الأموي، حينما ظهرت بعض الرباطات على سواحل مدينة بيروت، من أجل أن تكون مكاناً ومستقراً لكثير من المرابطين والمثاغرين فضلوا واختاروا حياة النضال والجهاد ضد العدو البيزنطي في ذلك الوقت، وكان في طليعة هؤلاء المرابطين المثاغرين عبد الرحمن بن عمرو المشهور (بالأوزاعي)، الذي اشتهر مذهبه الفقهي بشكل خاص أو بالأحرى تميز بالتشريعات أو الأحكام الحربية وأعمال الجهاد والرباط وما يتصل بهذه المسائل. مما ساعد على انتشاره في بداية حكم العرب بالأندلس^(٥٦)، ذلك لأن العرب المسلمين

الأندلسيين كانوا بحاجة ماسة لمثل هذه الأحكام، بحكم جهادهم ونضالهم ضد الذين كانوا يتربصون بهم الشر من أسبان وغيرهم من الفئات الأخرى المعارضة.

كما يستثنى من ذلك أيضاً تلك الفنادق، التي أنشئت في العصر العباسي واتخذت أمكنة لإقامة المرابطين في مناطق الثغور في شمال العراق وسورية .

لا بد أن نقول في نهاية الجولة في مواقع الرباط والمثاغرة العربية في العصور الوسطى، ما أشبه أمس البعيد في الوقت الحاضر، الذي نحتاج فيه إلى إقامة حياة حافلة بأعمال الرباط والمثاغرة الدائمة، ليس في الميدان الحربي والدفاعي فحسب، بل في كل ميادين الحياة العامة ووجوهها، علماً نشغل مكانة ما في عالم أصبح التقدم فيه يسير باطراد وبلا توقف، ولا يتوانى في الوقت نفسه مع المقصرين أو المغفلين، وأهم من كل ذلك أن نقف بقوة أمام هجمات الأعداء المستمرة التي تحاول على الدوام قتل كل يريق للأمل فينا، حتى لا نتعرف إلى السبل الناجعة التي تؤدي بنا إلى عالم النور والضياء والبحبوحة. ولن نصل إلى ذلك العالم إلا إذا تمثلنا في كل حركاتنا وسكناتنا المعاني النبيلة لكلمة الرباط أو المثاغرة، من أبناء أمتنا المخلصين، لنؤكد من جديد ومن خلال التطبيق والممارسة أننا أجداد أولئك الذين أثروا حياة الرباط والمثاغرة، من أجل الذود عن الأرض والبقاء.

المصادر والمراجع والنواشي

- ١- البلاذري-فتوح البلدان ج ١ ص ١٥٠- أحمد الشامي- الخلفاء الراشدون- طبعة أولى بيروت ١٩٨٢ ص ٢٨٩ .
- ٢- البلاذري- المصدر السابق ج ١ ص ١٧٥ و ١٩٢ .
- ٣- الطبري-تاريخ الرسل والملوك ج ١ ص ٨٦ و ١١٨- الماوردي- الأحكام السلطانية ص ١٨٧ .
- ٤- البلاذري-المصدر السابق ج ٢ ص ٢١٧ .
- ٥- تاريخ الطبري-ج ٥ ص ١٧٢ و ١٨١ و ٢١٧ .
- ٦-الأصفهاني-الأغاني ج ١٧ تحقيق علي البجاوي- طبعة القاهرة ١٩٧٠ ص ٢١٠ كانت صانقة يزيد بن معاوية في سنة ٥١ هـ.
- ٧-نبيه عاقل-الإمبراطورية البيزنطية ص ١١٤- ١١٥.
- ٨-ابراهيم العدوي-الأمويون والبيزنطيون-الدار القومية للطباعة والنشر طبعة ثانية ص ١٧٥ .
- ٩-نبيه عاقل-الإمبراطورية البيزنطية ص ١٢١ .
- ١٠-البلاذري- المصدر السابق ج ٣ ص ٢٦٦ .
- ١١-شغل منصب الخلافة من سنة ٨٦-٩٦ هـ.
- ١٢-٥-تاريخ الطبري-ج ٦ ص ٤٣٤-ابن الأثير - الكامل في التاريخ ج ٤ ص ٥٢١

- ١٣- تاريخ الطبري- ج ٦ ص ٥٢٣- العدوي- الأمويون والبيزنطيون ص ٢١٦ حكم سليمان بن عبد الملك من سنة ٩٦-٩٩ هـ .
- ١٤- العدوي- الأمويون والبيزنطيون ص ٢٢٢ .
- ١٥- البلاذري- فتوح البلدان ج ٢ ص ١٨١ و ج ٥ ص ٦٢٠ - ابن الجوزي- سيرة عمر بن عبد العزيز طبعة مصر ١٣٣١ هـ ص ٩٩ وما بعدها . حكم عبد العزيز من سنة ٩٩-١٠١ هـ .
- ١٦- البلاذري- فتوح البلدان ج ٢ ص ٢٢٨- ٢٢٩- تاريخ الطبري ج ٧ ص ٩٠ .
- ١٧- بدأ العصر العباسي الأول سنة ١٣٢ هـ وانتهى سنة ٢٤٧ هـ .
- ١٨- تاريخ اليعقوبي ج ٢ ص ٣٦٢ البلاذري- فتوح البلدان ج ١ ص ٢٢٢ .
- ١٩- البلاذري- فتوح البلدان ج ١ ص ٢٢- ابن الأثير- الكامل في التاريخ ج ٥ ص ٥٧٦ حكم المنصور من سنة ١٣٦ حتى سنة ١٥٨ هـ . -البلاذري- فتوح البلدان ج ٢ ص ٢٢٨- ٢٢٩-
- ٢٠- تاريخ الطبري ج ٩ ص ٣٤٧- ابن الأثير- الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٦٦ و ١٠٨ .
- ٢١- قنسرين أحد الأجناد الشامية في العصر الأموي، وقد أُسْتُخْدِثَ هذا الجند في عصر يزيد بن معاوية بن أبي سفيان، وضم أراضي حلب وانطاكية وفيه أصبحت الأجناد الشامية خمسة بعد أن كانت أربعة. أما الجزيرة فيقصّد فيها الأراضي المحصورة بين نهري دجلة والفرات ومنها الجزيرة في شمال شرق سورية.
- ابن الأثير- الكامل في التاريخ ج ٦ ص ١٠٨ .
- ٣ - ابن الأثير- الكامل في التاريخ ج ٦ ص ١٥٣ .

- ٢٤-٢٠- تاريخ الطبري ج ١٠ ص ٩٥- ابن الأثير- الكامل في التاريخ ج ٦ ص ١٩٠.
- ٢٥- تاريخ البيهقي ج ٢ ص ٤٦٧ تاريخ الطبري ج ١٠ ص ٢٨٣- ابن الأثير- الكامل في التاريخ ج ٦ ص ٤٢١.
- ٢٦- فتحي عثمان- الحدود الإسلامية البيزنطية ج ٢ ص ١٠٣- ١٤٠.
- ٢٧- ابن الأثير- الكامل في التاريخ ج ٥ ص ١٩٠ وما بعدها.
- ٢٨- كانت ثورة الخوارج بالمغرب الكبير من سنة ١٢٢-١٢٤هـ.
- ٢٩- المالكي- رياض النفوس في طبقات علماء القيروان وأفريقية ج ١ تحقيق حسين مؤنس طبعة القاهرة ١٩٥١ ص ٣٢٨.
- ٣٠- المالكي- رياض النفوس ج ١ ص ٣٣٣.
- ٣١- أنظر تفاصيل وافية عن هذه الجملة: أحمد المدني- المسلمون في جزيرة صقلية وجنوب إيطاليا ص ٧٢ وما بعدها.
- ٣٢- ابن الخطيب- تاريخ المغرب في العصر الوسيط ص ٢٢٧-٢٢٨.
- ٣٣- صنهاجة بكسر الصاد من أكبر القبائل المغربية القديمة بعد قبيلة مصمودة، ومنها سلاطين الدولة المرابطية.
- ٣٤- السيد عبد العزيز سالم- تاريخ الطبري الكبير ج ٢ ص ٦٩٤.
- ٣٥- ابن الخطيب- أعمال الأعلام ص ٢٣٠- ابن خلدون- العبر ج ٦ ص ٣٣٧- الحميري- الروض المعطار في خير الأقطار ص ٣١٨.
- ٣٦- المقرئ التلمساني- نفح الطيب من غصن الأندلس الرطيب ج ٦ ص ٢٧٠.
- ٣٧- خايمة أوليفر آسين- تاريخ مدريد ص ٨٩- محمود علي مكي- مدريد العربية طبعة وزارة الثقافة المصرية ص ٦٤ وما بعدها.

- ٣٨- محمود علي مكي-المرجع السابق ص ٨٣-٨٤.
- ٣٩- ابن عذاري-البيان المغرب ج ٣ ص ٢٠٠ وما بعدها.
- ٤٠- ابن الآبار-التكملة لكتاب الصلة-الترجمة رقم ٢.
- ٤١- ابن بشكوال-كتاب الصلة الترجمة رقم ١٢١٩ .
- ٤٢- محمود علي مكي-المرجع السابق ص ٦٢.
- ٤٣- انظر عن هذه المدينة -الحميري-الروض المعطار في خبر الأقطار مادة سالم.
- ٤٤- يعرف النورمانديون إضافة إلى هذه التسمية باسم الفايكنج Vikings و هي تسمية مشتقة من الكلمة النرويجية فيك Vik التي تعني الخليج. ومع ذلك وردت في المعاجم الإسبانية بمعنى المحاربين، وباسم المجوس لأنهم كانوا يشعلون النار في كل مكان يحلون فيه، فظن العرب المسلمون أنهم من عبدة النار أو المجوس.
- ٤٥- العذري-ترصيع الأخبار ص ١٠٠.
- ٤٦- أحمد مختار العبادي-في تاريخ المغرب والأندلس طبعة دار المعارف ص ١٤٠.
- ٤٧- أحمد مختار العبادي-المرجع السابق ص ١٤٠-١٤١.
- ٤٨- بدأ هذا العصر سنة ٣١٦هـ. وانتهى في سنة ٤٢٢هـ.
- ٤٩- ابن عذاري-البيان المغرب ج ٣ ص ١٣.
- ٥٠- عبد الواحد المراكشي-المعجب في تلخيص أخبار المغرب ص ٢٣٨-المقدسي أحسن التقاسيم ص ٢٤٢.
- ٥١- ابن حيان-المقتبس تحقيق عبد الرحمن الحجي ص ٧٦.
- ٥٢- ابن خلدون-العبر-ج ٧ ص ٣٦٦ وما بعدها.

٥٣-المقري التلمساني-نفع الطيب ج ٢ ص ٢٢٢-الذهبي-العبر في خبر من خبر ج ٤ ص ٣٠٩-آسين بالاثيوس-ابن عربي-ترجمة عن الإسبانية عبد الرحمن بدوي- طبعة القاهرة ١٩٦٥، ص ٧٠ وما بعدها. علي أحمد-الأندلسيون والمغاربة في بلاد الشام طبعة دمشق-طبعة دار طلاس ١٩٨٩ ص ١٦٦ وما بعدها.

٥٤-المالكي-رياض النفوس ج ١ ص ٣٥-ابن الأثير-الكامل في التاريخ ج ٤ ص ١٨١-ابن عذاري-البيان المغرب ج ١ ص ٣٥.

55- Iram Lapidus-Middle Eastern cities, university of California- Press 1969 pp.21-70

٥٦-أحمد مختار العبادي-المرجع السابق ص ١٠٩.

